"مسالك الابتداء"
للمفكِّر التونسي محمد أبو هاشم محجوب
مُحاكاة من قرب لمساعي هايدغر الوجوديّة

خضر إبراهيم
باحث وأكاديمي- لبنان

في كتابه الصادر حديثًا تحت عنوان: "مسالك الابتداء - دراسات هايدغريَّة" ينحو المفكِّر التونسيُّ البروفسور محمد أبو هاشم محجوب نحوًا مخصوصًا في مقاربة الفيلسوف الألمانيِّ مارتن هايدغر ونظامه المعرفيّ. على أنَّ ما يميِّز عمله الجديد هذا، بالإضافة إلى كثير من أعماله السابقة، أنه يجاوز نمطيَّات الترجمة الكلاسيكيَّة ليدخل في محاكاة النصِّ وتأويله ومساءلته بشغفٍ نادر. فهو حين يترجم لا يفعل ذلك بما تُمليه عليه مقتضيات المهنة فيصير كناقل الحرف بالحرف، لكنه مع النصِّ الهايدغريِّ نراه ينصرف نحو استقراء خفاياه ومستغلقاته بفهم مستحدث لا يعود فيه النصُّ الأصليُّ منقطعًا عن فعاليَّة المترجم وعنايته.

لا يسعُ القارئ وهو يتابع أسلوبيَّة البروفسور محجوب إلَّا أن ينوِّه بخاصِّيَّة الاستقراء الواعي إذَّاك، والإحاطة العميقة بالشخصيَّة الهايدغريَّة ومشروعها الأنطولوجيّ. فنحن هنا أمام فيلسوف يناظر فيلسوفًا ولو من باب من قرب، فتراه كمن يصغي إلى كلماته من داخل قاعة الدرس، ثمَّ يمضي من بعد ذلك إلى تأويل ما قصَدَت إليه تلك الكلمات والألفاظ.

يُعرب محجوب في مستهلِّ كتابه عن مكنونه حيال النصِّ الهايدغريِّ بمجموعة من تساؤلات واستفهامات تختزن ما يتعدَّى التقريريَّة الأكاديميَّة الشائعة في فضائنا المعاصر. مؤدَّى هذه الاستفهامات والتساؤلات جاءت كالتالي: كيف يمكن أن نقدِّم هايدغر، بل كيف يمكن أن نقدِّم لكتاب يقدِّم هايدغر؟ ثم يجيب على وجه التساؤل والرّيبة المضمَرة، أن مثل هذا التقديم لهايدغر ليس بالأمر الهيِّن، وأنَّ التردُّد على عتبته لأبعد ما يكون عن اقتصاديَّات الأسلوب وآداب الاستهلال. بل لعلَّنا، على اختلاف المقام، لدى موقف الرَّهبة لسقراط، إذ يذكر برمانيدس، فيخاف أن يظلَّ فكره مستغلقًا عليه... يضيف: فالذي بيننا وبين هايدغر مسافة لغة لا تطويها الترجمة. وأبعاد فكر لا يُصاغ على صورة قضايا جاهزة للاستعمال، وفوق كلِّ ذلك، فالذي بيننا وبين هايدغر معاصرة بغير تزامُن، فكيف السبيل إلى مزامَنة المعاصرة؟

يرى البروفسور محجوب أنَّ ما يذكره في الكتاب من أسئلة منهاجيَّة هي بعض من صعوبات هايدغر على الناس؛ وأنَّها لتزداد ازديادًا على الذي يروم حلَّها في محدود نطاق التقديم، لولا ما يهتدي به من أعمال الذين سبقوه إليه في لغات أخرى(...). وليس أهون وطأة منها ما ينجم عن مثيلاتها من مسايرة أهمِّ الأعمال الهايدغريَّة الممتدَّة بين سنة 1927 تاريخ صدور كتاب "الوجود والزمان" سنة 1962، فعلى مدى هذه المسافة الفاصلة بين فصليَْ المؤلَّف الواحد، بل بين فصليَْ الجزء الواحد من المؤلَّف الواحد تمتدُّ مسايرتنا لمسألة الوجود لدى هايدغر ولكن هذه المسافة، على ما يلوح من قصرها، لا تحتمل أن تُطوى على نحو ما ننتقل ضمن المصنف الواحد، من باب إلى باب.[1]

يدرك المؤلِّف استنادًا إلى مكابداته في نقل التراث الفلسفيِّ الحديث إلى العربيَّة، أنَّ الترجمة في حقيقتها الأصليَّة هي إدراك المعنى واستبصار مقاصد النصِّ، من قبل أن تكون تحويلاً للكلمات. وهذه المنهجيَّة التي سلكها محجوب هي نظير ما ذهب إليه بعض هيرمينوطيقيِّ الحداثة حيال الترجمة وفلسفتها. ولنا أن نقدِّم مثالاً في هذا المورد:

في كتابه تحت عنوان «التعرُّف على الغريب» يؤسِّس الهيرمينوطيقيُّ الفرنسيُّ أنطوان بيرمان أطروحته الترجميَّة على قاعدة تجعلها نظيراً موازيًا للكشف عمَّا هو مجهول ومستتر في بنية النصّ. بل إنَّه يذهب إلى ما يتعدَّى ذلك، ليبيّن أنَّ ممارسة الترجمة تنطوي على بُعد سوسيو – معرفيٍّ يؤول إلى التعرُّف على أحوال النصِّ بوصفه غريبًا.. ولذلك لم يأتِ عنوان كتابه سابق الذكر، إلَّا ليعكس طبيعة المهمَّة الشاقَّة للترجمة. إذ من خلال هذه المهمَّة ينبغي أن تُنجز أهدافٌ تتجاوز تقنيَّات نقل الحروف والجمل والعبارات من لغة إلى لغة، لتصل إلى إدراك سرِّ النصِّ ودلالاته ومراميه.

[1] - مسالك الابتداء- ص 27-28-29-30-31-32.

فالنصُّ المنقول يُنظَر إليه من جانب بيرمان على أنَّه هو وصاحبه ينزلان منزلة الغربة، ولذا ينبغي أن يكونا معًا موضوع التعرُّف. وبهذا يصبح الغريب حقلاً معرفيًّا من الدرجة الأولى، وبالتالي يجب إدراكه والتعرُّف إلى مزاياه وخصائصه وطبائعه ومقاصده وغاياته على هذا الأساس. ومثلما سيفعل محجوب في ما بعد حيال أعمال هايدغر، يعترف بيرمان بصعوبة المهمَّة، لكنه يقترح حلولاً لبلوغ ترجمة تعرُّفيَّة تقوم على خطَّين أساسيَّين متلازمين هما:التجربة والتأمُّل: على خطِّ التجربة، يرى أنَّها، من حيث طبيعتها، تجربة. فالمترجم يكابد ويعاني التعارضات التي تتناول مجال الترجمة، مثل التعارض بين اختلاف الُّلغات وتشابهها، والتعارض بين قابليَّتها للترجمة وعدم قابليَّتها لها.. وكذلك التعارض بين استرجاع المعنى واستنساخ المبنى. أمَّا على خطِّ التأمُّل: فيلاحظ أنَّ «الترجميَّات» هي «غاية الترجمة في ذاتها». مبيِّنًا كيف أنَّ التأمُّل ليس إلاَّ انعكاس التجربة على نفسها انعكاسًا يتمُّ بواسطة الُّلغة الطبيعيَّة، وكيف أنَّ الترجمة لا تستغني عن هذا التأمُّل ولو أنَّها قد تستغني عن التنظير.

عالم هايدغر وتداخل الترجمة بالميتافيزيقا:

حين نظر مارتن هايدغر إلى النقل من زاوية الفلسفة، انطلق ممَّا يسمّيه «الوجود المستقلّ للُّغة» وكذلك من «المعنى الأصلي للفظ». فجعل الترجمة الموصولة بالفلسفة تستمع إلى الوجود الُّلغويِّ، ثم لتستنطق المعنى الأصليَّ الذي فيه. وهذا هو الهمُّ المعرفيُّ الذي شكَّل محور اشتغالات البروفسور محجوب لدى اقترابه من نصوص هايدغر.

لعلَّ ما يمكن استنتاجه من كتاب «مسالك الابتداء» أنَّ التجربة الهايدغريَّة كانت ملهمة للخطوط الكبرى في الممارسة الهرمنيوطيقيَّة. الصورة تبدو واضحة حين يستعيد محجوب إشكاليَّات الترجمة ويسعى لتقديم إجابات عليها تبعًا لاستقرائه أعمال هايدغر. وهكذا لا يزال السؤال يُطرح عمَّا إذا كانت الترجمة عمليَّة ممكنة، وصادقة في آن... ولعلَّ الكلام في هذه المفارقة مرجعُهُ الى جدلٍ لم ينتهِ حول ما إذا كان النصُّ المترجَم هو نفسه النصَّ الأصل، لا سيَّما أنَّ ثمَّة من لا يزال يشكِّك في إمكان نجاة النصِّ من الأذى فيما هو يترنَّح بين لغتين لكلٍّ منهما عالمها المخصوص. يظهر ذلك في حقل الأدب والشعر والسياسة، مثلما يظهر على الخصوص في حقول الفلسفة والتصوُّف والنصوص المقدَّسة. كثيرون من الباحثين وجدوا أنَّ تاريخ الفلسفة هو نفسه في العمق تاريخ الترجمة. وقد تكتسي الترجمة مظهر الشرح والتعليق كما هو الشأن عند ابن رشد. وعلى سبيل المثال، فإنَّك حين تدرس أرسطو فذلك يعني أنَّك تشرحه، ثمَّ تحوِّله من لغة إلى لغة، ومن خطاب إلى خطاب. وهذا التحويل هو ما يوفِّر للفلسفة حيويَّتها ونشاطها. والذين يقولون بهذا

الرأي يعتقدون أنَّ الترجمة تنفخ الحياة في النصوص وتنقلها من ثقافة إلى أخرى. والنصُّ - برأيهم – لا يحيا إلَّا لأنَّه قابل للترجمة، أو أنَّه غير قابل لذلك في الوقت ذاته. فالترجمة ككلِّ كتابة هي فعاليَّة وتحويل وإعادة إنتاج. ذلك أنَّ ترجمة نصٍّ ما هي تحويله وتوليده. فالنصُّ لن يموت، ولن يُلغى إلَّا إذا لم يعد قادرًا على الإنتاج، إلَّا إذا لم يعد يطرح أسئلة. وفي هذه الحالة، فإنَّه لا يُترجم فقط، وإنما لا يُفكَّر فيه وبه، ولا يُتداول، ولا يؤوَّل، ولا يُقرأ، ولا يعود نصًّا. من هذه القراءة سنلاحظ أنَّ الترجمة تمرُّ بمراحل متداخلة ومتناسجة في ما بينها. فهي كما يُقال، نَسْخٌ وإلغاءٌ واستمرار. إنَّها نقلٌ للنصوص وتحويل لها. وهي أيضًا تحويل للُّغتين معًا: اللُّغة المترجِمَة واللُّغة المترجَمَة. ولعلَّ هذا معنى ما قصده الجاحظ في قوله «متى وجدنا الترجمان قد تكلَّم بلسانين علمنا أنَّه قد أدخل الضَّيْمَ عليهما، لأنَّ كلَّ واحدة من اللُّغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها وتعترض عليها».

بالنظر إلى خصوصيَّة هذا العمل، كان على البروفسور محجوب أن يستهلَّ ما ذهب إليه بإيضاح منهجيَّته في تناول فيلسوف «الدازاين» انطلاقًا من المشهد الذي جرى تظهيره فيه عبر نقله إلى العربيَّة.

يحتوي كتاب «مسالك الابتداء» حسب المؤلِّف على قسمين، وكان صدر منهما قسم تحت عنوان «هايدغر ومشكل الميتافيزيقا» في طبعتين اثنتين ضمن سلسلة مفاتيح، عن دار الجنوب للنشر في تونس، سنتي 1995 و1996، وقد نفدت الطبعتان منذ أمد بعيد. أمَّا القسم الثاني فقد ضمَّ دراسات أغلبها غير منشورة من قبل. ولكن الذي يجمع بينها هو مناقشة مسألة الابتداء في التفكير الهايدغريِّ. ولذلك فهي تدور في أغلبها حول قراءة هايدغر للابتداء الإغريقيِّ للفلسفة: أرسطو، أفلاطون، برمانيدس.

لقد احتاج طبع هذا الكتاب، كما يبيِّن المؤلِّف، إلى إدخال تنقيحات جوهريَّة عليه تمثَّلت أساسًا في إضافة فصول جديدة عدَّة، وإعادة العمل، في القسم الأول، المنشور من قبل. وليس جديدًا على القارئ - يضيف المؤلِّف- أنَّ هذا القسم كان من أول، إن لم يكن هو أول، ما كُتب في العربيَّة عن هايدغر على نحو جدِّيٍّ. ولذلك فإنَّ ما صاحب تلقّيه من الاكتشاف ولا سيَّما في مفهوماته المقترحة، لم يعد اليوم بتلك الجدَّة والمباغتة، خصوصًا بعدما أصبح الناس أعرف بهايدغر، وبعدما تعدَّدت حوله الأطروحات الجامعيَّة في مختلف الجامعات العربيَّة، وتواترت بل تزايدت المقالات التي تخصَّص له في المجلَّات والمجاميع. وعليه، لم يعد اليوم من الممكن إغفال ترجماته العربيَّة، على تفاوت قيمتها وتراتب مستويات دقَّتها، واختلاف درجات استيفائها، فضلاً عن إحكامها للفكرة الهايدغريَّة بالجملة. ولم يعد من الممكن تجاهل «الدروس» اللَّافتة في

تأويله مما انعكس على ترجماته وعلى اختيار الألفاظ الدالَّة على معانيه. ولكن لم يعد ممكنًا أن نتجاهل تطوُّر الهايدغريَّات في العالم وتطوُّر الأسئلة المطروحة عليها بالنظر إلى ما صار الوعي الفلسفيُّ يطرحه على نفسه من الأسئلة. ولذلك، كان علينا إعادة التدخُّل أحيانًا في النصِّ من أجل مساءلته عن كيفيَّة إجابته على كلِّ هذه المتغيّرات التي ليست هيِّنة ولا بسيطة[1].

حسب توضيحات المؤلِّف في الترتيب المنهجيِّ للكتاب، فإنَّ هذه الطبعة الثالثة (للقسم الأول) تريد أن تكون تحيينًا واعيًا بالمسافة بين مبدأها الأول وصيغتها الحاليَّة ولا سيَّما بالنظر إلى مستجدَّات التلقّي التي ذكرنا. وهكذا سيظهر هذا التحيين بالخصوص في مجموعة عناصر يوردها المؤلِّف على الشكل التالي:

أوَّلًا: إعادة ترجمة كلِّ الشواهد التي كانت وردت باللِّسان الفرنسيِّ ونقلها إلى العربيَّة عن الأصل الألمانيِّ، وتبعًا لهذا الإجراء عمد المؤلِّف إلى تقديم ترجماته لها عن ذلك الأصل، مُدخِلًا ما ينبغي من التغييرات الاصطلاحيَّة على النصِّ كلَّما كان ذلك ضروريًّا، مع الإشارة إليه.

ثانيًا: التحيين البيبليوغرافيُّ كلَّما كان في ذاك وجاهة، أي كلَّما كان لذلك التحيين أثرٌ في القراءة التي يتمُّ تقديمها.

ثالثًا: الإشارة، في الحدود التي لا توجب إعادة صياغة الكتاب من أصله، إلى ما استجدَّ من المعرفة بهايدغر، وتطوُّر تفكيره، بالنَّظر إلى تسلسل نشر أعماله الكاملة وتواصله إلى اليوم[2].

يفضي هذا الترتيب إلى أنَّه لم يكن للبروفسور محجوب أن يكتفي بباب واحد ليدخل عالم هايدغر. بل كان أجدى أن يتعامل بنباهة ووعي خاصٍّ مع فيلسوف حائر في أمره وحيَّر معه قرَّاءه غربًا وشرقًا وعلى امتداد العالم المعاصر. فلكي يقرأ نصَّ هايدغر- كما يقول المهتمّون - وَجَبَ التهيُّؤ لرحلة مشرَّعة على طبقات شتَّى من الفهم. لكن هذا لن يفضي بك إلى الإعراض، بل إلى ما يدعوك إلى مجاراته بخفرٍ وصمتٍ وانتباه. فلو أخذك سهوٌ عمَّا قَصَدَ من وراء عبارةٍ أو نعتٍ، فلربما أشكل عليك ما كنت تحسَبُه من بديهيات الكلام. وحالئذٍ ما لَكَ إلا أن تتحرَّى عالمه الشخصي من قبل أن تتأوَّل كلماته.. كما لو صرتَ بإزائه تلقاء كتاب موصود. هكذا يطيب لهايدغر أن يقف دائمًا على الحافَّة، يراقب ما يتوارى بين الثنايا والتُّخوم، أو ما يتخفَّى تحت أقنعة اللُّغة. يتعامل مع المفاهيم ومرجعيَّاتها كمشرفٍ على عالمٍ أدنى، أو كعاهلٍ يستبدُّ بالكلمات حتى لا تستبدَّ به الكلمات. متحرِّرٌ ممَّا سبق، وممَّا يعايش الآن، وما سيلي من وقائع. لكي تنعتق من أسره وجاذبيَّته ليس لك إلَّا أن تتاخمه برفق، ثم أن

[1] - «مسالك الابتداء» - ص 12.
[2] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

تعقد معه ميثاقاً ينتظمُه ديالكتيك الوصل والفصل. تَودُّ لو تقربُهُ وتكون في الآن عينه، لا مُريدًا له ولا خصمًا. فيلسوف ينطوي على سرٍّ متعدِّد الكمائن مثل هايدغر لا مناص مع رفقته من تقوى المتدبِّر. أنت وهو حالئذٍ نظيران يتناظران من بُعد. فلئن لم تفعل بما تُمليه عليك حكمة التناظر، سكَنْتَ عالمه الحائر، فتشابهت عليك المقاصد، فلا تستطيع معه صبراً على فهم. وإذًا .. سوف يكون على المتعرِّف، أن يُبرم مع هايدغر وإنشاءاته ضربًا من تعادل لا محلَّ فيه للغلبة. وليس ذلك إلَّا لينأى مسافة ما من سطوة المفهوم، وغواية المصطلح، وضباب الفكرة. لعلَّ في التناظر معه ما ينشئ للقارئ منفَسحًا من تَرَوٍّ يعينُه على احتواء ما هو شاقٍ وغامضٍ من قوله الثقيل[1].

لقد استعاد هايدغر ما سبق وما لَحِق من أسئلة الميتافيزيقا، ثمَّ استودعها «حاضرته» الفائضة بالإبهام. فليس من غرابةٍ إذًا، أن نرى إلى مختبر أفكاره كمستودع يحوي العناوين الكبرى التي أنجزتها الفلسفة، على تعاقب أطوارها، وتنوُّع مدارسها وتيَّاراتها. لم يكن شُغلُه باستعادة الأسئلة الماضية الحاضرة، لأجل تفكيكها او انتقادها تمهيدًا للتبرُّؤ منها، وإنمَّا لتكون له ممرًّا إجباريًّا لمجاوزتها، وإعادة تظهيرها وفقَ ما يختزنه مشروعه من إنشاء فلسفيٍّ متجدِّد. ولقد أفصح هايدغر عن ذلك لمَّا أشار إلى صعوبة الكتابة من خارج أفق الميتافيزيقا. وكانت حجَّتُه تقول إنَّ الاعتناء بالسؤال المتعلِّق بحقيقة الوجود يستحيل أن يُنجَز بمعزلٍ عن عالم الواقع الذي يشكِّل أفق الدلالة الشاملة للذَّات الحيَّة، والذي في مجاله تتحقَّق الخبرة الإنسانيَّة. في هذا النحو يشير البروفسور محجوب إلى أنَّ الحديث عن "نقد الميتافيزيقا" لدى هايدغر لا يجب أن يخفي حقيقة أنَّ عبارة "الميتافيزيقا" عنده لم تكن تشير دائمًا إلى الفكر المتحرِّك ضمن نسيان الوجود. فهذه العبارة داخل الوجود والزمان هي حسب توصيف المؤلِّف عبارة مصطنعة الاستعمال. ويشهد بذلك أنَّها في جميع استعمالاتها هي واستعمالات تصاريفها ترد بين "ظفرين" مما يحيل إلى ضرب من الحذر، أو على الأقلِّ من الحرص على عدم الالتزام بالمعنى الطبيعيِّ والمتداوَل للعبارة، ومن عدم الانخراط فيه[2].

من الواضح أنَّ هايدغر لم يقطع مع الميتافيزيقا الكلاسيكيَّة التي اكتفت بالاعتناء بالموجود، بل دعا إلى اجتيازها من خلال العودة إلى السؤال الأصيل عن وجودٍ لفَّهُ النسيانُ. ولأجل ذلك راحت منظومته تنمو وتتكامل من خلال سلسلة من الانعطافات:

الأول: حين توقف مليًّا عند معنى واجب الوجود. كان ذلك بالنسبة إليه لغزًا، ولكنه لغزٌ سيمهِّدُ له الطريق للانتساب إلى عالم التفلسُف. جرى ذلك عام 1907 وقتَ قرأ كتاب فرانز

[1] - أنظر: د. محمود حيدر- الفيلسوف الحائر في الحضرة - مجلَّة «الاستغراب»- العدد 5 - خريف 2016.
[2] - مسالك الابتداء- ص 105.

برينتاتو في «باب المعاني المتعدِّدة للوجود بحسب أرسطو». الكتاب الذي ابتنى عليه ـ كما قال ـ مساره وأسلوب تفكيره.

الثاني: حيث سعى لتجاوز وهن الميتافيزيقا وفقرها الوجوديّ. كانت دعوته حالذاك متَّجهةً إلى نقل الهمِّ الميتافيزيقيِّ من حيِّز الاعتناء بالماهيَّات نحو فضاءِ العنايةِ بالوجودِ وأصالتِه.

الثالث: لمَّا استدرجه السؤال عن حقيقة الوجود إلى قلق طاول قاع النفس والفكر، وبسببه طفق يبحث عن مَلكَاتٍ أخرى غير مرئيَّة في الروح الإنسانيَّة لتكون البديل من العقلانيَّة المتشيِّئة لميتافيزيقا الحداثة.

الرابع: حَيْرتُه في الإشراقات التي وجد أنَّ الكينونة تَهَبُها للإنسان لكي يهتدي بها إلى صواب الضمير. حَيْرة تبدَّت فيها الإشراقات على وجهين متعاكسين: بين أن تتأتىَّ حصيلة اشتغالات الفكر المحض في انجذاباته القصوى، وبين أن تكون حاصل اختبار باطنيٍّ عميق من شأنه أن يأخذ بناصيته إلى اليقين[1].

حيال هذه الانعطافات المتداخلة هذه، ظلَّ هايدغر مشغولاً بـ"الما قبل والما بعد" في عين اللَّحظة. انشغل باللَّحظة الفيزيائيَّة وتمظهُراتها، قدر انشغاله بسؤال الوجود وغيبته. لكن فيلسوف الدازاين سيتواجه مع السؤال الأكثر بداهة وحضورًا وبساطة والأعمق غورًا في الآن عينه: «لماذا كان وجود الموجودات بدلاً من العدم؟».. إنه سؤال الأسئلة كلِّها كما سمَّاه. أمَّا حاضريَّتُهُ ودلالاتُه فتعود إلى مكانته التأسيسيَّة، وإلى تجاوزه العميق لمعظم الأسئلة الأخرى، وكذلك إلى كونه سؤالاً جائزاً وبديهيًّا وضروريًّا لاستئناف التنظير الفلسفيّ.

يعرض المؤلِّف إلى شهادة هايدغر التي توضح عودته إلى أرسطو من خلال قراءته لمقالة فرانز برنتانو فيقول: «لقد اعترضني (traf mich) السؤال عن الوجود (Sein die Frage nach dem))، خلال سنوات المعهد الأخيرة، وتحديدًا في صيف سنة 1907، فتمثَّلت لي في صورة مقالة فرانز برنتانو، معلم هوسرل. لقد كان عنوانها: في الدلالة المتعدِّدة للموجود بحسب أرسطو، وتعود إلى سنة 1862. وهذا الكتاب إنَّما أهداه إليَّ آنذاك ابن بلدتي، وصديقي الأبوي، الدكتور كنراد غروبر. (Dr. Gonard Grober) الذي سيصبح لاحقًا رئيس أساقفة فرايبورغ، وقد كان يومئذٍ كاهن رعيَّة كنيسة الثالوث (Dreifaltigkeitskirche) في كونستانس.[2]

يبدو السياق المباشر لشهادة هايدغر في ما يتَّصل ببرنتانو – حسب تعليق المؤلِّف- سياق

[1] - هايدغر- مدخل إلى الميتافيزيقا- مصدر سابق - ص 210.
[2] - مسالك الابتداء - ص 11-12.

عرض للتأثيرات التي تحكَّمت في "درس 1921" حول "العبارة والظاهرة" (Ausdruck und Erscheinung)، وجعلته يعالج "مشكلة الكلمة والوجود"، وهي المشكلة التي اتخذت تباعًا في مراوحة ذكريات هايدغر، صورة النحو التأمُّلي Grammatica speculative- في 1915، ثمَّ صورة التفكُّر المعاصر للتعبيريَّة في الشعر وفي الفن، أو قبل ذلك بكثير، في هلدرلين وتراكل. وتنتمي إلى هذا السياق، وفي الوقت نفسه، نصوص سابقة على الدرس المشار إليه وأخرى لاحقة عليه. وهكذا فقد يكون من الضروريِّ أن نعتبر، من طرف أول، مقالة برنتانو ورسالة المقولات الدلالة عن دونس أسكوت (Die Kategorien-und Bedeutungslehre des Duns Scotus) على الأقل، ومن جهة أخرى زاين أند تسايت(Sein und Zeit) . هكذا ترتسم الوصلة التي تربط بين طرفيَ مسألة الوجود. أمَّا عن تأويلات أرسطو الفينومينولوجيَّة ومشكل وحدة دلالات الوجود التناسبيَّة، فإنَّ المؤلف يعمل على إبراز مزايا رؤية هايدغر فيكتب: "ضمن واحد من أشدِّ النصوص تركيزًا حول أرسطو، يريد هايدغر أن يتجاوز الأطروحة الوسيطة للوحدة التناسبيَّة لدلالات الوجود ضمن الجوهر، أي لوحدتها المقوليَّة، فيذكر أنَّ الجوهر ليس إلاَّ واحدًا من دلالات الوجود إلى جانب دلالاته الثلاث الأخرى بما هو عرض، وبما هو صادق، وبما هو قوَّة وفعل: فينتهي إلى "ضرورة أن ننتبَّه إلى أنَّه يحضرنا ها هنا مفهوم آخر للتناسب لا يتطابق مع المفهوم الذي ينظِّم علاقة المقولات". ثمَّ إنَّ هذا المفهوم الثاني للتناسب هو الذي سيقوده إلى أن يتساءل في 1931، أي تقريبًا لدى نهاية تفكُّر شغله قرابة العقد من السنين: "ماذا يكون هذا الوجود حتى ينبسط هكذا على نحو رباعيٍّ؟ وهل تكون هذه الرباعيَّة التي يوجِّه إليها أرسطو سؤال الوجود، هي هي، بوجه عام، كثرة الوجود الأشدَّ أصلانيَّة؟"[1].

هذا السؤال المركَّب والمعقَّد الذي يستخلصه المؤلِّف من قراءاته لهايدغر سيحيل إلى دلالات اللُّغة وعلاقتها الوطيدة بفلسفة هايدغر.

لغة الوجود كمصطلح ومفهوم:

تشكِّل اللُّغة والمصطلح الهايدغريُّ أحد أبرز المحاور التي يوليها المؤلِّف عنايته في كتابه الذي بين أيدينا. طبقًا لعمليَّة تطوُّرها، فإنَّ اللُّغة تشكِّل حتمًا صيغة المصدر لكلمة "الوجود"، على سبيل المثال: "أن يوجد" أو "أن يقدم نفسه"، ولكن مع مرور الزمن أصبحت اللُّغة، نتيجة لذلك، تنتج معنى ضعيفًا متبلِّدًا وغامضًا لتلك الكلمة. هذا الأمر يحدث، في الواقع، هكذا ليكون على تلك

[1] - المصدر نفسه - ص 190-193.

الشاكلة وبهذه الصورة فحسب. فبدلاً من الحصول على توضيح لهذه الحقيقة، أن حقيقة الوجود، التي نحن في أمسِّ الحاجة إلى توضيحها، نقوم فحسب بطرح حقيقة أو واقعة أخرى، تناسب وتلائم تاريخ اللُّغة، تقع إمّا إلى جانبها أو خلفها. وحسب هايدغر في كتابه المعروف "مدخل إلى الميتافيزيقا" فإنَّ كلمة "الوجود" هي أكثر الكلمات خواء وفراغًا ولكن هي أيضًا مع ذلك ذات معنى شامل. وما يتمُّ الاعتقاد والتسليم فيه بالعلاقة مع تلك الكلمة (كلمة الوجود)، بناءً على ذلك، هو أنها ليست أكثر من مفهوم عام عالٍ، أي أنَّها جنس. لكن الواحد يظلُّ بالكاد يكتشف مفهوم "الوجود في العموم" "ens inn genere" كما طرحته الأنطولوجيا القديمة؛ مع ذلك، وفي نهاية المطاف، لا يوجد المزيد من السعي والجهد الدؤوب والبحث الجاد في هذا الاتجاه عن معنى الوجود في تلك الأنطولوجيا. ولذا، مع هذه الكلمة الخاوية والفارغة للوجود، فإنَّ الأمر ببساطة سيؤدّي بكلِّ شيء إلى حالة فوضى وغموض وارتباك. هنا في الحقيقة لا توجد إلَّا إمكانيَّة واحدة من أجل أن نميّز وندرك خواء هذه الكلمة وفراغها وتركها من ثم إلى ذلك الحال. وهذا الأمر ربما يبدو هو الذي ينبغي أن نقوم به الآن مع ضمير واضح ومرتاح، بل أكثر من ذلك بما أنَّ الحقيقة، المتعلِّقة بكلمة الوجود، قد تمَّ توضيحها وحسم أمرها تاريخيًّا بوساطة حقل تاريخ اللُّغة[1]. ففي الواقع، إنَّ الموجودات في كلِّ مكان تمثِّل حالة رضى واطمئنان في قلوبنا كونها تحيط بنا من كلِّ جانب. ولكن من أين لنا أن نعرف أنَّ كلَّ واحد من هذه الأشياء التي نستشهد بها وندرجها في عداد بياناتنا مع الكثير من الضمانات هو يمثِّل حقًّا الموجود؟ هذا السؤال الأخير يبدو لنا أنَّه مُنافٍ للعقل ومحضَ سُخف، لأنَّ كلَّ موجود عاديٍّ يمكن له أن يُقيم ويؤسِّس بطريقة لا يشوبها الخطأ حقيقة أنَّه موجود في هذا العالم. نعم هذا الأمر صحيح ومن الممكن التأكُّد من ذلك بلا عناء.[بل حتى ليس من الضرورة، بالنسبة إلينا، أن نستخدم مثل تلك الكلمات الغريبة عن لغتنا اليوميَّة المتداولة، "كالموجود" و"الموجودات"]. وفي الواقع لا نستطيع أن نستوعب أن نفهم في هذه اللَّحظة محاولة أن نشكَّ بوجود كلِّ تلك الأشياء التي تحيط بنا، وأن نقيم شكوكنا فقط على أساس ملاحظات علميَّة مفترَضة، أي، أنَّ ما نجرِّبه من تلك الموجودات هو محض نتاج أحاسيسنا فحسب، وأنَّنا لا يمكن مطلقًا أن نهرب من سلطة أجسادنا التي تبقى مرتبطة بكلِّ الأشياء التي قمنا بتسميتها. وفي واقع الأمر، نودُّ أن نطرح بعضًا من الملاحظات مقدمًا بشأن هذا الموضوع وهي: أنَّ مثل تلك الاعتبارات والملاحظات العلميَّة المفترضة، التي يشعر الناس من خلالها أنهم متفوّقون وواثقون، هي ليست كذلك تمامًا وبالضبط. هنا يشير المؤلِّف إلى أنَّ كلمة وجود ليست فارغة وخاوية إطلاقًا. فحينما ندرك كلمة "الوجود" إمَّا عن طريق سماعها كوحدة صوتيَّة أو لفظيَّة أو نراها

[1] - مارتن هايدغر- مدخل إلى الميتافيزيقا - نقله إلى العربيَّة: عماد نبيل - دار الفارابي - بيروت 2015 - ص 198.

كعلامة مكتوبة، فهي على الفور تمنح نفسها امتيازًا على أنَّها حقًّا شيء آخر مختلف عن تعاقب الأصوات والحروف في أيِّ كلمة، وحتى في كلمة "التعويذة". وهذه الأخيرة هي أيضًا تعاقب من الأصوات، لكننا نقول على الفور إنَّها خالية من المعنى وأمر فارغ وأخرق، رغم أنَّها تملك معناها كصيغة سحريَّة. وبشكل مماثل، فإنَّ كلمة "الوجود"، المكتوبة والمرئيَّة تختلف في الحال عن كلمة "Kzomil". وهكذا، فإنَّ هذه الكلمة الأخيرة هي أيضًا، سياقٌ و تعاقبٌ من الحروف، ولكن في العلاقة مع هذا التعاقب أو السياق لا يمكننا أن نفكِّر بأيِّ شيء ذي معنى ومدلول في ما يتعلَّق بها. لكن، في الحقيقة، ينبغي القول أنَّه لا يوجد إطلاقًا ما يسمَّى بكلمة فارغة؛ ففي الغالب قد تتهالك الكلمة وتهترئ، لكنها مع ذلك تبقى ممتلئة بالمعنى والدلالة. إن الإسم "وجود" يظلُّ يحتفظ بقوَّته الوصفيَّة العامَّة. إنَّ القول اللَّاحق: -"بعيدًا عن هذه الكلمة الفارغة" "الوجود"؛ ينبغي لنا أن نذهب إلى الموجودات الفرديَّة الشخصيَّة"-.

سوف يلخِّص البروفسور محجوب مكابداته مع هايدغر فيرى أن مساءلة "الدازاين" تصدر عن التسليم له بفهم أصليٍّ أصيل للوجود على نحو يفسِّر الطمع في صفائه. ولكن نقاوة فهم "الدازاين" للوجود لا تلبث أن تتغشَّاها غشاوة غربته إذ يقتلعه المأثور الميتافيزيقيُّ من أصالته، بل يحلُّ به كالبنية فيبهت عنه معنى الوجود. هكذا تظلُّ صراحة السؤال عن الوجود إذن افتراضًا لازمًا للفكر، ويظلُّ تحكيم المأثور الميتافيزيقي مستهديًا بفهم الوجود الأصيل، ساعيًا إلى إحيائه، متبرِّئًا بذلك من أن يكون المعنى الذي للوجود اختلافًا وتحكُّمًا للفكر. وعليه، فإنَّ تحليليَّة "الدازاين" وتحكيم تاريخ الأنطولوجيا ينتظمان انتظامًا دائريًّا خانقًا في كتاب الوجود والزمان. ولا يمكن بأيِّ وجه من الوجوه كسر الدور إلَّا أن يتنكَّر الكتاب لمشروعه بتضامن المهتمّين: فانكسر القول وهو يشارف نصف سعيه.

هكذا يترسَّب تاريخ الأنطولوجيا بقاع انفتاحنا على الوجود، وتطاول بساطة فهم الدازاين للوجود تحكيم تاريخ الأنطولوجيا. فكيف نستغرب من بعد ذلك حمل الوجود والزمان محمل العمل الذاتيَّاتيِّ الهائل: فإنَّ بساطة فهمنا للوجود تعتمها تراكمات التاريخ التي ما تزال تضيق عن تصوُّر الإنسان الذي هو نحن على معنى غير الذات. لذلك تُبنى علاقة "الدازاين" بالوجود على أنَّها علاقة الذات بالموضوع، وتستحيل إقباليَّة الوجود إلى القبليَّة التعاليويَّة للذَّات المؤسِّسة[1].

تلك إيماءات عامَّة من جملة ما تومىء لنا به تجربة البروفسور محجوب في الترجمة والتأويل بالعكس. فلو أخذنا بجَمَاعِ التجربة التي خاضها هؤلاء، لرأينا ضروبًا من اختبارات إبداعيَّة، أفلحت في أحيان شتَّى في التحرُّر من التباينات التي يفرضها وجود لغتين متوازيتين في التعامل مع النصّ.

[1] - أنظر: كلمة المؤلِّف في هذا الخصوص على الغلاف الخارجيِّ للكتاب.

والنقل في كلِّ حال، أمرٌ مستصعب، ومهمَّة شاقة، فلا يحسنُهُما إلاَّ من كان على دراية وعناية بثلاث معارف:

أوَّلًا: معرفة بلغة الآخر.. أي بلسان الغريب وكيف يتكلَّم.

ثانيًا: معرفة بلغته الأصليَّة. ذلك بأنَّ مهمَّة المترجم أن يُعِدَّ للنصِّ المترجَمِ ما وَسِعَتْه قدرتُهُ من إحاطة بقواعد اللُّغة، في نحوها، وصرفها، وبناءاتها، وتراكيبها.

ثالثًا: معرفة بنوع النصّ. فلو لم يكن المترجمُ عالماً بالنصِّ المترجَمِ، أقلُّ الأمر أن يكون مثقَّفًا به، قارئًا له، فلن يتسنَّى له الإحاطة والاتقان به والإحسان إليه. وإذًا، العلم بنوع النصِّ المترجَم، هو من الشرائط الأولى التي يجب على المترجم حيازتها.

يبقى السؤال جاريًا حول ما إذا كانت الترجمة ممكنة. وفي هذه الحال أيضًا، سوف يأخذ الجواب مسافة أبعد ممَّا ذهبنا إليه حتى الآن. فلقد اشتغلت الفلسفة الغربيَة على الترجمة بوصفها قضيَّة في غاية التعقيد. ثم مضت بعيدًا في الاجتهاد لعلَّها تجد حلولاً لهذه الإشكاليَّة.

* * *

- الكتاب: «مسالك الابتداء – دراسات هايدغريَّة».

- المؤلِّف: محمد أبو هاشم محجوب.

- الناشر: سلسلة حروف الفلسفة - دار كلمة للنشر والتوزيع – تونس – 2021.

لائحة المصادر والمراجع:

1 - مارتن هايدغر- مدخل إلى الميتافيزيقا - نقله إلى العربيَّة: عماد نبيل - دار الفارابي - بيروت 2015.

2 - محمود حيدر- الفيلسوف الحائر في الحضرة - مجلَّة "الاستغراب"- العدد 5 - خريف 2016.